المحاضرة السابعة: نظرية لومبروزو

مما لا شك فيه أن علم الإجرام الحديث يدين بالفضل للماركيز الإيطالي سيزار لومبروزو Cesar Lombroso، الذي وضع أسس الحركة العلمية في مجال الدراسات الإجرامية، والذي تمثل نظريته حجر الزاوية لكافة المذاهب البيولوجية والتكوينية التي قيلت من بعده حول تفسير السلوك الإجرامي، كما أن أفكاره تمثل عصب الفلسفة الوضعية في الفكر العقابي والسياسة الجنائية.

1. من هو لومبروزو؟

ولد لومبروزو في فيزونا Verone في نوفمبر من عام 1835 ، من أبوين يهوديين ودرس الطب في عدد من الجامعات الإيطالية، وبعد تخرجه عمل أستاذاً للطب الشرعي والعقلي بجامعتي بافيا Pavia وتورينو Torinoالإيطاليتين، كما كان طبيبا للأمراض العقلية في سجون إيطاليا، وقد أتاح له عمله عدة سنوات في الجيش الإيطالي ملاحظة العديد من النماذج المختلفة من الجنود والقادة العسكريين، وقد لاحظ أن بعضهم يتصف بسمات يغلب عليها طابع القسوة والتمرد على النظام، بينما يتسم البعض الآخر منهم بالطاعة والانضباط كما أن الجنود الأشرار كان لديهم شدوداً عضوياً وكانت لديهم وشمات ورسوم قبيحة، ليست موجود لدى أقرانهم من بقية العسكريين، ولاحظ على أكثرهم يستعمل اليد اليسرى بدلاً من اليمني.

كما أجرى لومبروزو بحوثاً على نحو 300 جمجمة المجرمين متوفيين من مرتكبي جرائم العنف، فقد اكتشف تجويف في مؤخرة الدماغ مثل التي توجد عند بعض الثدييات الدنيا واسترعى انتباهه شدود في تكوين الأسنان وشكل الجبهة وحجم الجمجمة، يشبه الحال الذي كان عليه حال الإنسان الأول، وتأكدت وجهة نظره هذه بتطبيقه للمقاييس الأنثروبولوجية وبالفحص العضوي لعدد 50117 من المجرمين الأحياء.

وقد سجل لومبروزو أسس الحركة العلمية في مجال علم الإجرام ونتائج أبحاثه تلك في كتابه الشهير الإنسان المجرم L'homme criminel "، الذي ظهرت طبعته الأولى عام 1876.

ثم تبعه بمؤلف آخر في عام 1901 أسماء الجريمة أسبابها وعلاجها، واختتمها بمؤلف عن 1906 المرأة المجرمة والدعارة في عام1906

وتقوم نظرية لومبروزو على أساس أن هناك أشخاصاً يتميزون بخصائص جسدية وملامح عضوية خاصة وسمات نفسية معينة، وأن هؤلاء الأشخاص ينقادون إلى الجريمة بتأثير العوامل الوراثية ويندفعون إلى الإجرام بحكم تكوينهم البيولوجي اندفاعاً حتمياً، لا يكون حياله من سبيل للعلاج سوى استئصاله من المجتمع، ولا يخفى تأثر لومبروزو في ذلك بأفكار داروين عن التطور والارتقاء التي تعرض لها في كتابه الأشهر أصل الأنواع عام 1859، والذي يؤكد فيه أن الإنسان هو استمرار السلفه الحيواني، أو أن الإنسان هو أخر حلقة من حلقات تطور الخلية الحية الأولى . وهكذا فلدى لومبروزو أن الإنسان المجرم هو الذي يحتفظ عن طريق الوراثة بالخصائص الأنثروبولوجية والبيولوجية المماثلة للإنسان البدائي، فتدفعه دفعاً إلى سلوك سبيل الجريمة، أي أن المجرم مجبر على ارتكاب الجريمة، فهو مجرم بالميلاد.

أو بالطبع، أي أن السلوك الإجرامي يقوم لديه على فكرة الحتمية البيولوجية، التي تعود إلى الخطاط في الأصل، أي توافر صفات تشريحية وعقلية ونفسية وعلامات ارتدادية في شخص المجرم تطابق ما كان عليه الإنسان في العقود السحيقة، تؤدي إذا ما توافرت في شخص معين إلى دفعه بلا اختيار - إلى السقوط في هوة الجريمة.

ولقد كانت نقطة البدء لدى لومبروزو عندما شرع في تشريح جثة قاطع طريق في جنوب إيطاليا يدعى فيليلا Vilella، إذا اكتشف وجود تجويف في مؤخرة جمجمته شبيه بالتجويف الذي يوجد لدى بعض الحيوانات المتوحشة والفردة ولدى بعض الثدييات الدنيا، وقد استنتج من ذلك أن المجرم يتمتع بشدود جسماني برند به إلى صفات وخصائص الإنسان الأول وأن هذا الشذوذ هو الذي يفسر إجرامه، بل

ويجعله متقاداً على نحو حتمي إلى سلوك سبيل الجريمة. ومن بعد تناول لومبروزو بالفحص حالة مجرم خطير يدعى فيرسيني، انهم بقتل

نحو عشرين من النساء بطريقة وحشية، حيث كان من عادته أن يمثل بجثثهم بعد قتلهم، ويشرب من دمائهم ثم يقوم بدفنهم في أماكن خصصها لذلك، وقد لاحظ عليه.

لومبروزو وجود علامات خاصة مثل التي كانت توجد لدى الإنسان البدائي والحيوانات الدنيا والمتوحشة.

2. سمات الارتداد لدى لومبروزو:

خلص لومبروزو من دراسته لتلك الحالات إلى أن للمجرم الصفات التشريحية والنفسية ومظاهر قسوة التي كانت توجد لدى الإنسان البدائي والحيوانات المتوحشة، تدفعه إلى الجريمة على نحو حتمي وبحكم تكوينه البيولوجي والعضوي، فالمجرم هو نوع من البشر يتميز بمظاهر جسمانية شادة وسمات نفسية معينة يريد بها إلى الأصول الأولى للإنسان في العصور الغابرة.

وقد عدد لومبروزو مظاهر هذا الارتداد أو الرجعة الإجرامية، فذكر منها انحدار الجبهة، وضيق تجويف عظام الرأس، بروز عظام الوجنتين، وغزارة في شعر الرأس والجسم، وقلة شعر اللحية، وطول مفرط في الذراعين والأصابع، ضخامة الفكين والشذوذ في حجم الأذنين وفرطحتها، والشدود في تركيب الأسنان، وانعكاف الأنف وفرطحتها، والبلوغ الجنسي المبكر، وقد اشترط لومبروزو وجود خمس علامات على الأقل من علامات الارتداد كي يصبح الإنسان مجرماً بالفطرة.

وقد وجه لومبروزو بعض أبحاثه محاولاً أن يجمع الصفات العضوية الخاصة التي توجد لدى طوائف المجرمين من السارقين والقتلة ومحترفي الدعارة ومغتصبي النساء.

ولا يقف الأمر لدى لومبروزو عند حد توافر سمات ارتدادية خاصة بالمجرم، وإنما قرر من واقع بحوث لاحقة أن هناك علاقة وثيقة بين الإجرام وبين التشنجات العصبية أو الصرع.

ولقد كان دليله في ذلك حالة الجندي ميسديا Misdea الذي كان مريضا بالصرع، فقد حدث في عام 1884 أن طرد هذا الجندي فجأة - بعد عدة سنوات قضاها في الجيش وكان قد مسك منضبطاً لقتله ثمانية من رؤسائه وزملائه، ثم سقط فاقد الوعي اثني عشر ساعة لمجرد أن أحدهم سخر من مقاطعة كلابريا التي ينتمي إليها، ولما أفاق من جريمته لم يتذكر شيئا مما حدث.

وخلص لومبروزو من ذلك إلى أن هناك صلة بين الإجرام وبين التشنجات العصبية المصاحبة للصرع، التي من شأنها أن تدفع المجرم إلى ارتكاب أفعال تتسم بالعنف ربما دون أن يدري عنها شيئاً.

بل أن لومبروزو قد كشف في الطبعة الثانية لمؤلفه الإنسان المجرم عام 1897 عن أن هناك عدد من الصفات النفسية والملامح السلوكية الخاصة التي تميز المجرم عن غيره من الأفراد، من تلك الصفات ضعف الإحساس بالألم، الذي كشف عنه كثرة وجود الأوشام على أجسام المجرمين الغرور انعدام الشعور بالشفقة، سهولة الاستثارة والاندفاع الكسل واللامبالاة الشعور بعدم الاستقرار، ضعف الوازع الأخلاقي، عدم الشعور بالذنب.

3. تصنيف المجرمين عند لومبروزو

لقد تعرضت أفكار لومبروزو أبان ظهورها لنقد شديد خاصة فيما يتعلق بفكرة الارتداد، وتمسكه بالمجرم بالميلاد أو بالفطرة كنمط إجرامي وحيد بين المجرمين، إذ من الصعب جمع كافة المجرمين تحت نموذج واحد، وقد دفع هذا النقد لومبروزو إلى أن يطور من نظريته، فقام باستبعاد المجرم بالميلاد وأضاف طوائف أخرى من المجرمين، وانتهى إلى اعتماد تصنيف سداسي للمجرمين يضم الفئات الآتية:

❖ **المجرم المجنون**

وهو الشخص الذي يرتكب الجريمة تحت تأثير المرض العقلي، وقد أدخل لومبروزو المجرم الهستيري الحمر والمخدرات. هذه الطائعة في ومدمن

❖ **المجرم الصرعي:**

هذا النمط يضم من يرتكب الجريمة تحت تأثير الصرع الوراثي، الذي ينتقل عادة عند الولادة، ويؤدي إلى ضمور في بعض العضلات ويؤثر على الأعصاب ويحد من الوظائف النفسية، وقد تتطور حالة المريض بالصرع فتؤثر على حالته العقلية.

استعداده الخاص للاضطرابات العقلية فينقلب إلى مجرم مجنون.

❖ **المجرم السيكوباتي المجنون خلقياً**

وهو الشخص الذي ينعدم لديه القدرة على التكيف مع المجتمع، فيبدأ بالتصادم معه في صورة خرق القوانين وارتكاب الجرائم.

❖ **المجرم بالعاطفة:**

وهو مجرم يتصف بحدة المزاج وبالحساسية المفرطة وسرعة الانفعال وجموح العاطفة، يندفع إلى تيار الجريمة تحت تأثير حب شديد أو حقد أو غيرة أو استفزاز ... الخ، وغالبا ما تكون جرائمه من نوع الجرائم السياسية وجرائم الاعتداء على الأشخاص، وسرعان ما يندم عقب ارتكاب جريمته، لذا غالباً ما يسارع إلى تعويض الضرر الناتج عن الجريمة، أو تغيير محل إقامته كي يبتعد عن مكان الجريمة أو الاتصال بالمجني عليه، وقد يقدم على الانتحار عقب جريمته.

❖ **المجرم المعتاد**

وهو نمط من المجرمين يولد من دون أن تتوافر لديه علامات الارتداد أو صفات وخصائص المجرم المجنون أو بالميلاد، إلا أنه يندفع إلى ارتكاب الجريمة تحت تأثير ظروف بيئية واجتماعية معينة، كإدمان الخمر، البطالة ، الفقر ، أو اختلاطه بمحترفي الإجرام منذ الصغر، فهو مجرم بالاكتساب وليس بالميلاد. ويغلب أن تكون جرائمه بسيطة من نوع جرائم الاعتداء على الأموال، وكثيراً ما ينجح السجن في تهذيبه وتقويمه ويدفعه إلى الإقلاع عنها.

❖ **المجرم بالصدفة:**

وهو شخص لا يتوافر فيه الاستعداد الإجرامي وليس لديه صفات المجرم بالميلاد. ولكنه غالباً ما يرتكب جريمة بالصدفة ويعتاد على تكرارها.